وقفات مع رواية (الغيمة الباكية)

للروائي عبدالله عيسى السلامة

لا أود الخوض في تفاصيل الأحداث، وكثرة الأسماء والشخصيات في رواية الغيمة الباكية، ولا أود الاستغراق في متابعة الصراعات الصغيرة والكبيرة، والتعليقات الكثيرة، والتحليلات التي تداخلت مع الأحداث حتى صارت شيئاً مهماً في الرواية، مهما كان تأثيرها على الحبكة والترابط، بل أريد أن أبتعد عن كل هذه التفصيلات لإلقاء نظرة شاملة على هذه الرواية، نظرة أقرب ما تكون لانطباعات قارىء، اهتم بالرواية واهتم بموضوعها، وأفكارها، وميادينها المختلفة، وأصعدتها المتنوعة، لعل هذه النظرة تلقي بعض الضوء على الرواية، وتفيد في إثراء التجربة التي يمارسها الكاتب، فيها، وفي الرواية السابقة (الثعابيني).

١ـ لقد كتب كثيرون روايات تقترب من الأدب الإسلامي، أو تتناول موضوعاً إسلامياً[١]، ولكن الكثير من هذه الروايات كانت تقع ـ كما يبدو لي ـ على الخط الفاصل بين الأدب الإسلامي وغيره، إذ تختلط فيها التصورات الحديثة، التي تتصل بالفكر الغربي المادي، والفلسفات الغربية المختلفة، والتصور الإسلامي. فضلاً عن ظهور التحيز في اختيار الشخصيات وتصويرها إلى النمط الغربي، ولكن هذه الرواية الطويلة[٢] بأشخاصها الكثيرين[٣]، وأبطالها المتعددين، ومساحة الأحداث التي شملت سورية، عامة، وبادية الشام ـ خاصة، هذه الرواية كانت تطرح القضايا، وتصور الشخصيات، وتناقش وتعلق وتتابع الأحداث من تصور إسلامي واضح، لا يهمه أن يختفي، أو يصطبغ بأية صبغة

---

(١) نذكر في هذا المجال روايات كتبها عبدالحميد جودت السحار، وعلي أحمد باكثير، ونجيب الكيلاني وغيرهم.

(٢) بلغت صفحات الرواية وحدها /٤٢٠/ صفحة.

(٣) بلغ عدد الشخصيات/ ٣٩/ شخصية غير ما ذكر من عبيد ونساء.

أخرى، إنها رواية تكتب بتميز واضح، وثقة تدعو إلى الاطمئنان بعيدة عن العقد من فنون الغرب، وأساليبه، وتقصير المسلمين وعجزهم وحاجتهم لتقليد الغربيين في هذا الفن وغيره.

الكاتب يخط طريقه بثقة، وهو يعلم أنه قد يخطىء، ولكنه يعلم أيضاً أنه يستطيع أن يعطي شيئاً مفيداً، يدعو الآخرين للالتفات إليه والتوقف عنده، ومناقشته، وخيراً فعل، ومن واجب النقاد الغيورين على دينهم، الحريصين على بلادهم، وأمتهم وتراثهم أن يعطوا مثل هذه الروايات، والإبداعات ما تستحق من الاهتمام والدراسة، إسهاماً في إثراء التجربة الأدبية للقصة الإسلامية المعاصرة.

٢ـ والملاحظة الأولى تنقلني إلى ملاحظة أخرى تتعلق بأهمية الاستمرار في كتابة الرواية الطويلة التي تهتم بمجتمعاتنا الإسلامية، من خلال رؤية واضحة حقيقية، بعيدة عن التشويه والتزوير، هذه الروايات التي تتناول شريحة كبيرة أو شرائح مختلفة من المجتمع، وتهتم بموضوعات وقضايا مختلفة فكرية، واجتماعية، وتربوية، وسياسية، وفنية... وتتابع أحداثاً مضت، أو ما زالت بقاياها تجري، وتسجل وقائع لتطور هذا المجتمع من منظار إسلامي منصف، يكشف عن حقائق مهمة في هذين القرنين الأخيرين وتبرز أموراً كان لها آثارها الواسعة على تطور مجتمعاتنا الإسلامية المختلفة لكي يراها القارىء، من خلال هذه الروايات، بمنظار غير المنظار الذي تعوَّد أن يُجبر على النظر من خلاله. منظار صنع في بلاد الأعداء، بألوان محددة، وبزوايا دقيقة لكي لا يرى القارىء إلا من خلالها، وبالأبعاد التي يريدونها فقط، حتى أصبحت الانهيارات المحطِّمة في عالمنا الإسلامي في هذا المنظار دلائل نهضة وعلامات تقدم، وسبيل حضارة.

والانتكاسات والمصائب، غدت بهذه المناظير أساطير للبطولة والانتصار وقفزات في سبيل التقدم.

إن هذه الرواية ـ الغيمة الباكية ـ في نظري خطوة في هذا الطريق، وينبغي أن تستمر، وتتأصل، وتزداد اتساعاً في الرؤية، وتنوعاً في التناول، والاختيار.

٣ـ برز في هذه الرواية ـ كما في روايته السابقة الثعابيني ـ قدرة الكاتب على استيعاب هذا العدد الضخم من الشخصيات، والوقائع، إذ قاربت الأربعين، وامتدت الأحداث

لسنوات عديدة، مع استخدام الرمز المناسب في اختيار الأسماء (أسماء الأشخاص، والعشائر، والقبائل) وإعطاء الميزات المناسبة لكل شخصية، واللون المناسب للبيئة، وعدم الخلط بين هذه الشخصيات، وهي ميزة جيدة، تتيح للكاتب استخدامها في طرح كثير من الموضوعات ذات الحساسية بهذا الأسلوب لكي تظل الرواية أقرب إلى عالم الفكر، وقضايا المجتمع منها إلى تسجيل تجربة خاصة، والحكم عليها من خلال رؤية الكاتب العاجلة.

وفي هذا يستفيد الكاتب بشكل مناسب من خبرته وتجربته الخاصة لكي يطرح قضايا المجتمع، أو تجربة الأُمة في مرحلة من مراحلها بطريقة مفيدة.

٤ـ لهذه الرواية عدة أبعاد وجوانب: منها البعد السياسي، وقد أخذ قسطاً كبيراً من الرواية، والبعد الفكري، والبعد الاجتماعي، والبعد الإنساني، وتعدد الجوانب في الرواية يشير بطريقة غير مباشرة إلى ترابط الأمور فيما بينها، وتأثيرها المتبادل، لأنها تخص الحياة الإنسانية، والمجتمع الإنساني، ولا يمكن تجزئة الإنسان وتقسيمه إلى جوانب إلا بقصد التوضيح، وإلقاء الضوء على جانب دون آخر.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذه الجوانب تشير إلى مأساة مجتمعاتنا العربية الإسلامية ـ كما تصورها الرواية ـ بشكل عام، ومجتمع الرواية (بادية الشام ـ النموذج) بشكل خاص، هذه المأساة التي تبدو في جوانبها المختلفة ووجوهها المتعددة: الجهل الذي يخيم على الناس، البعد عن الإسلام المتمثل بهذا الجهل من ناحية، وبالعادات السيئة، والتقاليد الجاهلية، والمصالح الذاتية التي أصبحت راسخة ثابتة، وتحولت إلى موازين يزن بها المجتمع أموره، فيقبل أو يرفض على أساسها، حتى شعائر العبادة، لا يقبل منها إلا ما توافق مع هذه العادات، والتقاليد والمصالح من ناحية أخرى.

والمستعمر الذي استولت جيوشه على البلاد، وراح يتحكم بالناس والمصالح باسم مساعدة الشعب على إدارة أمور نفسه، والنهوض بمستقبله.

الخلافات التي نشأت بين القبائل المختلفة، بل بين العشائر التي تنتسب لقبيلة واحدة، والتنافس على الزعامات، وبيع الضمائر من أجل ذلك.

الاهتمام بالأمور الحياتية، المادية فقط، وعدم الاكتراث بالأخلاق والدين، والعلم،

والثقافة . . . إلخ ، مما أدى إلى بناء شخصية هشة يمكن قيادها من باب المنافع ، أو المصالح ، أو أية وسيلة مادية أخرى .

التخلف والفقر الذي يؤدي إلى النزاعات والغزوات الظالمة ، واسترضاء الأجنبي لنيل عطاياه ، التي هي بعض ما يأخذه من خيرات البلاد . . ضياع إنسانية الإنسان في خضوعها لهذه التقاليد القبلية ، والعادات الجاهلية ، والمصالح الخاصة . . .

كل هذه الجوانب توضح مأساة هذا المجتمع الذي عاش فيه أبطال الرواية وجرت على ساحاته أحداثها ، فالأرض الجدباء لا تنبت إلا النبتات الهزيلة أو الضارة ، وبمثل هذه الأماكن لا يمكن أن يظفر الناس بظلٍ وطمأنينة وسلام .

والأبعاد التي أشرنا إليها ـ كلها ـ ذات أهمية ، وتحتاج إلى روايات لكي تَبْرُز بشكلها المطلوب ، أو لتعالج ما تحويه من أمور ذات تأثير في هذا المجتمع . ولكن الرواية التي نحن بصددها أعطت اهتماماً أكبر للجانب السياسي ، وقد يبدو للقارىء في بعض الفصول أن الرواية تهتم بالجوانب الأخرى بصورة واضحة ، ولكنه عندما يمعن النظر يرى أن الجانب السياسي هو المحرك ، وهو المقصود في كثير من فصول الرواية ، وأحداثها ، ونشاطات شخصياتها .

الصراع والتنافس على زعامة القبيلة ، التجمع والدعوة من الشيخ عبّاس المدلول وأتباعه من أجل الثورة ضد الاستعمار والظلم والحكم بالإسلام ، العبد شوكان الوراد وأفكاره وهو واحد من جماعة رشيد عالي الكيلاني وثورته ضد الإنجليز . .

قد تبدو هنا أو هناك لمحات أخرى ، ولكنها ترتبط بالجانب السياسي أكثر من كل الجوانب .

ومع أهمية هذا الجانب فإننا بحاجة إلى التفتيش عن الجذور دوماً وعدم الانخداع بالمظاهر ، والسياسة هي الصورة الظاهرة البادية للعيان لما عليه أوضاع المجتمعات والبلدان . ولكن هذه الصورة ليست إلا نتيجة لما يدور في وسط المجتمع ، أو في ترابه من أمور ، إنها رؤوس النبتات التي اندفنت جذورها في الأرض وامتدت وتشعبت ، بشكل لم تعد تسمح لغيرها من النبات أن يعيش ، أو لغيرها من الجذور أن يمتد . والاستعمار لم يعد يلجأ إلى الأساليب العسكرية ـ وهو نوع من السياسة ـ إلا عند الضرورة القصوى ، لأن آثار هذه

الأساليب مكشوفة، قصيرة الأمد، تدعو الناس إلى المقاومة، وتثير ردود الفعل الطبيعية عند الشعوب للثورة والقتال، ونشدان الحرية، وبالتالي اليقظة. ولكن الأساليب الأخطر، والأكثر أثراً وفاعلية، الأساليب التربوية، والفكرية التي تصنع في هذه البلاد المنكوبة حماة للغرب من أبنـاء جلدتنا، بل تصنع الدعاة لأفكاره، المخلصين لمبادئه، المحاربين من أجله، العاملين لسيطرته وهيمنته على كل شيء.

إنها بأساليب التربية، سلخت أجيالاً من دينها، وقيمها، وولائها لبلدها. بل أصبح الولاء للبلد عند هذه الأجيال لا يتحقق إلا بالسير على منوال الغرب، والارتباط المصيري به فكراً وثقافة، وقيمـاً وأسلوب حياة. إنها بهذه الأساليب تغرس قيمها، وعقائدها، وأذواقها وأساليبها حتى يصبح لها جذور، وأسس يصعب على المجتمع التخلص منها.

٥ـ الرواية تشير بطريقة غير مباشرة، إلى هموم الحركات الإسلامية الحديثة، وسلبياتها في التفكير والتخـطيط والعمل، ولكنها تؤكد أن الهم السياسي هو الذي شغل أكثر هذه الحركات والجماعات في العقود الأخيرة، والنتيجة كانت خسارة فادحة على جميع الأصعدة لأسباب كثيرة، أشارت إليها الرواية في بعض جوانبها، ولكن الأمر الأكثر خطورة في هذا الموضوع غياب الرؤية الشاملة لهذه الجماعات، وانحصارها في الزاوية السياسية، وهي زاوية ضيقة ـ في نظري ـ وملوثة ومملوءة بشتى الأمراض والمفاسد، ولذلك لم تعد صالحة، من حيث المبدأ، لاشتراك هذه الجماعات أو المشاركة فيها بأية صورة من الصور.

العمل السياسي تتويج لحالة سائدة في المجتمع، وصورة من صوره التي هو عليها، ولذلك فإن على الذين جذبهم العمل السياسي حتى سدّ عليهم منافذ الدعوة كلها ـ تقريباً ـ أن يلحظوا فارقاً مهماً بين العمل الإسلامي، أي الدعوة لتحكيم الإسلام، والعودة إليه، والعيش في ظلاله، وغيره من الدعوات الحزبية أو السياسية.

الدعوة الإسلامية تحكيم لميزان واحد، ميزان رباني مأخوذ من كتاب الله وسُنّة رسولـه، وأداء لواجبات، وقيام بمسؤوليات، تنفيذاً لأمر الله عز وجل، دون النظر إلى الثمرة الدنيوية، إن توافرت أم لم تتوافر، وإن تحققت أو لم تتحقق.

الـدعوة إلى الله تربية للشخصية الإنسانية تربية تقوم على ارتباط راسخ بثوابت أزلية تنسجم مع نواميس الكون، وتتوافق في الأبعاد الكبرى مع الآخرة.

الـدعـوة إلى الله إقـامة مجتمع يتخلى بطواعية عن جاهليته ليدخل بحب وطواعية، وفدائية إلى الإسلام، لكي يستعذب التقرب إلى الله، وينسى همومه في لحظات الاتصال الروحي بالخالق عز وجل، هذا الاتصال الذي يتحقق في كثير من الأصعدة، في الشعائر التعبدية كما هو في الصلاة أو الصوم أو الحج وغير ذلك.

وفي القيام بالواجب تجاه الأُسرة كما هو في رعاية الأبناء وتربيتهم تربية إسلامية منذ أن تبدأ حياتهم نطفة إلى أن ينطلقوا شباباً مكلفين في القيام بالواجب تجاه المجتمع، كما هو في حب الخير للناس، وتقديم العون لهم، والسلوك الإسلامي معهم، والتضحية من أجلهم، وإيثارهم على الذات يوم تكون الخصاصة والحاجة.

في هذا وذاك.. ـ في نظري ـ نوع من الاتصال الروحي الذي تتحقق به صور من الـدعـوة، فضـلاً عن الجهـاد والقتال في سبيل الله. الدعوة فقه لدين الله، والتزام دقيق بأحكامه، وتخلق شامل بأخلاقه، واستنبات للخير في كل موضع من المجتمع الذي يعيش فيه المسلم. الدعوة يقظة مُستبصرة، لا تدع للمسلم غفلة، ولا تتركه يركن إلى النوم أو يأنس بالكسل، أو يصغي لوسوسة شيطان..

الـدعوة وعي، لأنها اتصال بالله، ترفع الإنسان حتى يرى الكون أمامه صغيراً ويرى الأزمان، والمسافات، والأعداد بأحجامها الحقيقية في ملكوت الله فلا تلهيه الصغائر، ولا تضلله الأضواء ـ كالذي تصنعه السياسة ـ ولا تخرجه المفاجآت عن خط سيره المرسوم، ولا تأسره المصالح الذاتية.

الدعوة.. الدعوة..

إذن هنـاك فرق كبير بين الدعوة للإسلام، والدعوة لغيره، أي بين العمل الإسلامي والعمل الحزبي، فالإسلام لا يقوم إلا بمسلمين يحملون مبادئه منهـج حياة، ويتمثلون به جيلاً لا يبتغي فيما يصنع إلا مرضاة الله عز وجل، جيلاً يخرج من حظ نفسه حتى يستعذب الموت في سبيل الله، هذا الجيل لا يمكن أبداً أن يضع عقيدته في كفة والدنيا مهما عظمت مقابلها في كفة أخرى. ولكن العمل عند الآخرين، عمل دنيوي، مقاييسه مصالح ومنافع مادية.

وكل المبادىء التي يُنادى بها مرتبطة بهذه المصالح الدنيوية، وتفسير الأمور بيد الذين

يملكون قيادة الناس، ولذلك يسهل عليهم التعامل مع الجميع، يسهل عليهم أن يقولوا شيئاً، ثم يقولوا عكسه. يدعون إلى شيء ويفعلون نقيضه، . وليسوا بحاجة إلى نوعية من الناس لكي يقودوا مجتمعاتهم. يحتاجون إلى تأييد الناس، إلى رفع الأيدي أو الصراخ بالتأييد، وهذا سهل ما دامت المنافع والمصالح هي الميزان والأساس. كل التجارب التي مرت بها الأحزاب العلمانية تؤكد ذلك. بالقوة، أو الرضى، ينالون التأييد، ولا فرق بين الأسلوبين لأن المسافة بين التأييد وعدمه هي حصول منفعة ما، أو مخافة مضرة ما. وبيد هؤلاء مصالح الناس، ولذلك يلوِّنون الأمور كما تقتضي الظروف. ولهذا لا ينبغي القياس على نجاحات الأحزاب الأخرى، فوجهتهم غير وجهة الإسلام، ونجاحاتهم مآسي ونكبات بالنسبة للمسلم، فكيف يصبح همُّ الحركات الإسلامية مثل هموم هؤلاء؟ وكيف يجوز أن تكون وجهتهم وأساليبهم هي ذاتها.

إنه نجاح للآخرين ولا شك، وينبغي أن يعترف الإسلاميون، ويعودوا لتقويم طريقهم من جديد، ما دامت الرواية تشير إلى ذلك.

٦ـ الرواية تطرح موضوعاً في غاية الأهمية، وتشير ولو بشكل عام إلى أساليب الغرب في السيطرة على العالم الإسلامي، وهو موضوع الاستشراق الذي يهدف إلى دراسة المجتمعات الإسلامية دراسة ميدانية، ابتداءً من التعرف على العادات والتقاليد، وإلى معرفة الأفكار والعقيدة والمؤثرات المختلفة التي تؤثر في كل مجتمع من المجتمعات، بل في كل منطقة من المناطق.

إنهم يدرسون الطوائف، والعشائر، والقبائل، والأجناس، والألوان، والطبقات، واللهجات، واللغات، والعوامل الاقتصادية، والمؤثرات النفسية، والطبيعية. . إلخ.

وهذا الأمر لم يعد خافياً، ولم يعد سراً ما يعده المستشرقون من أبحاث مختلفة متضافرة للجهات المختصة (الجهات السياسية، والاستخبارات والجهات العسكرية) ولكل دوائر التخطيط.

ولذلك يحددون بدقة الطرق الناجحة في السيطرة على كل شعب من الشعوب، فكرياً، واقتصادياً، ونفسياً.

بل يحددون بدقة الفئات والنماذج المرشحة للقيام بالأدوار المناسبة في الظروف التي يريدونها.

ويحددون أساليب التربية، ومناهج التعليم، وسياسة الإعلام، ومسائل الاجتماع والعلوم المختلفة ويقدمونها هدايا يتمسك بها هنا وهناك مَنْ تُوَجَّه إليهم، حتى تصبح وكأنها سبلُ تقدمهم، وأسباب حياتهم.

إنهم لم يعودوا بحاجة إلى مَنْ يرسَلُ من قبلهم لتخطيط مستقبل الشعوب، لأن هذه الشعوب حملت ما يريدون، وأصبح فيها مَنْ ينفذ هذه المخططات بحرارة وإخلاص.

هذا الموضوع في غاية الأهمية والخطورة معاً، وكم كنت أتمنى أن يكون بعده، وحجمه أكثر، أو أن تختص به رواية تحمل كل ما فيه من منعرجات ومخططات بطريقة ناجحة، لأن الكاتب ألح على جانبه السياسي أكثر من بقية الجوانب، وربط بين البعثة التبشيرية والسلطات العسكرية، وفي هذا نوع من التقييد، لأن موضوع البعثات التبشيرية أكبر كثيراً من الحملات العسكرية والقضايا السياسية.

٧ـ وفي الرواية أمور كثيرة متناثرة، وقضايا عديدة أشار إليها الكاتب بالتعليق في مناسبات مرت، وهي إشارة جيدة لهذه الأمور لأنها تلفت نظر القارىء بطريقة غير مباشرة إلى أهميتها، أو إلى بعض الحقائق، والوقائع التي قد لا يفطن لها.

ولكنني لا أرى أن تصبح هذه الإشارات عوائق أمام تسلسل الحوادث، أو حبكة الرواية، أو ترابط الأحداث.

وكاتبنا مولع بالوقفات التي تطول أحياناً، هنا وهناك، والتعليقات والتعليلات النفسية، والاجتماعية، والفكرية، والسياسية... إلخ. وهي في مجملها لم تبلغ درجة النفور، ولكن لا بد من ضبطها وإحكامها من قِبَل الكاتب، حتى لا تغدو هناك فجوات بين حوادث القصة.

٨ـ وللكاتب وقفات جميلة في الوصف للمكان، والطبيعة، والبدو، والحالات النفسية، ومظاهر الشخصية وغير ذلك، وله وقفات موفقة في مناقشة الاحتمالات التي ترافق الصراع النفسي، أو مواقف الحيرة التي يقفها أحد شخصيات الرواية.

٩ـ الكاتب شاعر، بل شاعر مبدع، ولديه قدرة على التصوير والوصف، ولذلك كانت

هذه الميزة واضحة في روايته، مع التزامه بالفصحى، حتى في المواقف التي اقترب فيها من تعابير أهل البادية. إنه نجح في اختيار الألفاظ والعبارات السهلة البسيطة التي تبدو ـ إذا نطقت باللهجة البدوية ـ أنها عامية ولكنها فصيحة صحيحة.

ولكنني ـ مع إعجابي بنجاحه ـ أود ألا ينزلق الكاتب نحو العامية بأي حال من الأحوال، وأن يكون الوصف والتصوير وسيلته لرسم الشخصية في حالتها الواقعية.

١٠ـ وأخيراً فإن هذه الرواية وسابقتها تشيران إلى قدرة كامنة لدى الكاتب في طرح موضوعات كثيرة من خلال رواياته، وإلى موهبة قادرة على استيعاب كثير من التجارب التي تمد الكاتب بالموضوعات المختلفة، وتتيح له أن يبدع ويمد القراء بعطاءات تستحق التقدير.

إن كتابة الرواية المتماسكة التي تطرح موضوعاً وتحمل هدفاً، وتملك تصوراً واضحاً ليس أمراً سهلاً، ولا يقدر عليها إلا صاحب الموهبة المتمكن من فنه.

وإن هذه الرواية خطوة مهمة في مسيرة الرواية الإسلامية الحديثة أتمنى أن تستمر، وأن يشحذ الكاتب همته لمواصلة السير في هذا الطريق، ما دام يملك الموهبة والرؤية الواضحة.

وأخيراً كنت أتمنى أن تقدم الرواية نفسها، وهي كفيلة بذلك حتى لا تقيدها المقدمات برؤية محددة، فتحصر القارىء في خطوط معينة، أخشى أن تحجب عنه الرؤية الواسعة أو تدعوه إلى التراخي فلا يمتد به الأفق إلى البعد الذي تطرحه الرواية.